نصف المسافة .. من بابا نويل إلى عباءة الخير

آية أحمد

بيت لحم مدينة الطفولة، مدينة الأحلام الأولى، المدينة التي يختلط فيها صوت الآذان برنين أجراس الكنائس، لتدعو دوماً إلى السلام. هناك ولدت، وهناك ترعرعت، كانت ولادتي على يد طبيب مسيحي قرر عند إطلاقي الصرخة الأولى نحو الحياة وتزامنها مع صوت الآذان، أن يسميني هو باسم (آية).

كنت طفلة أهل الحي المحبوبة، التي تتناول وجبة فطورها في البيت، وباقي الوجبات في بيوت الجيران، فلا تغيب من بالي الجارة «أم إلياس» التي كانت تخبئ لي السكاكر والحلوى، ولا تدع يوماً يمضي دون أن تأخذني إلى بيتها لأقضي معها بعض الوقت. أنتظر عيد الميلاد المجيد كجميع أطفال الحي الذي نسكنه حتى يحضر «بابا نويل» الهدايا التي اشترتها لي الجارات لأحتفل معهن بالعيد.

لم يدم هذا الحال طويلاً، فعندما بلغت من العمر 13 عاماً، قرر والداي أن ننتقل إلى السكن في مدينة رام الله، المدينة التي شعرت بها بأنني لم أعد تلك الطفلة المدللة التي كنتها في مدينة بيت لحم. فالبيت صغير، وكلما كبرنا كان يضيق علينا أكثر، لا نعرف جيران الحي، تساؤلات كثيرة تبادرت إلى ذهني: كيف ستبدو حياتنا؟ هل سيكون لدي أصدقاء؟ ما هي شكل مدرستي الجديدة؟ ومن هم المعلمات فيها؟ هل سيحبني الجيران كما اعتدت؟ ... كل شيء تغير في هذه المدينة من لحظة وصولنا إليها، فصرت أسمع جملاً كثيرة تتكرر على مسمعي: آية، لماذا تلعبين في الشارع؟ آية أنت أصبحت صبية، وكل شيء تغير، آية ما تمشي لحالك، آية لماذا تلبسين هكذا؟؟ ... آية .... آية ... أنا مبارح كنت طفلة، واليوم صرت صبية!

أول يوم في المدرسة الجديدة كان صعباً جداً وطويلاً. وجوه جديدة لا أعرف أحداً منها، مدرستي القديمة أجمل، قرع الجرس زاد من سرعة دقات قلبي، صوت المديرة يخترق أذني: هيا كل واحدة على صفها. مربية الصف تسأل: ما اسمك؟

أنا: آية.

المعلمة: آية، تفضلي بجانب عبير.

عبير: لأ ما بدي. خلي حد تاني ييجي بجانبي.

لم أعلم لماذا أجابت هكذا!! فأنا أراها للمرة الأولى، لكن ما إن انتهت السنة الدراسية حتى أصبحت من أعز صديقاتي.

في الصف العاشر بدأت انتفاضة الأقصى حيث كنت طالبة في مدرسة بنات بيت حنينا، على معبر قلنديا كنا نجلس ساعات طويلة في الحافلة، وبعد تجاوز المعبر والذهاب إلى المدرسة حوالي الساعة العاشرة والنصف، نواجه حاجز الضاحية، وكنا نمكث عليه، أيضاً، نصف ساعة أخرى، مع العلم أن ساعة صعودي إلى الحافلة كانت السادسة والنصف، والوصول الساعة الحادية عشرة والربع. الحصص المقررة عربي وإنجليزي ورياضيات فقط، حتى نتمكن من العودة إلى البيت بسلام في حوالي الساعة الخامسة مساء، كانت نصف المسافة التي أقطعها يومياً بالحافلة، والنصف الآخر مشياً على الأقدام.

أنهيت الصف العاشر، وانتقلت إلى مدرسة بنات البيرة -بيتي الثاني- حيث وجدت الصديقات والمعلمات الرائعات، لا بل أمهاتنا، وقد كانت أجمل مرحلة دراسية، سرعان ما انتهت، فانتقلت بعدها إلى مرحلة جديدة في حياتي، إلى مرحلة تكوين أسرة، والالتحاق بالدراسة الجامعية تخصص تربية؛ التخصص الذي أهلني للعمل كمربية في إحدى الروضات القريبة من بيتي، حيث خضت فيها تجربتي الأولى في التعليم؛ تجربة بدأت بشعور كبير بالمسؤولية، وبارتباك وخوف، لأنها المرة الأولى التي أكون فيها معلمة.

قبل اليوم الأول في الروضة، وقفت كثيراً أمام المرآة أتخيل الطريقة التي سأحدث بها الأطفال في صفي، جربت الكثير من السيناريوهات، وفي النهاية قررت أن أترك نفسي تخوض تجربتها الأولى. دخلت إلى الصف، فإذا بهم 11 طفلاً يجلسون أمامي بعيون مفتوحة

جانب من مشاركة المربية آية أحمد في ورشة «الظل» ضمن لقاءات منتدى الطفولة المبكرة- برنامج البحث والتطوير التربوي/ مؤسسة عبد المحسن القطان، 2018.

ومصوبة نحوي، حدثتهم بهدوء، ونفذنا الكثير من الأنشطة سوياً، ألوان، وملتينة، ورقص، وغناء، وانتهى اليوم الأول بسلام. كان المدير متعاوناً جداً، أصبح يتابع عملي ويدربني ويمدني بكل ما يلزمني حتى أطوّر نفسي، حتى نلت رضا الأهل والمدير، والأهم بدأت أرضى عن أدائي، وصار العمل جزءاً مهماً في حياتي، وعلى الرغم من أن الأجر الذي كنت أتقاضاه كان ضئيلاً، فإن حبي لمهنتي تجاوزه، فتوسعت دائرة علاقاتي، وأصبح لدي العديد من الصداقات الجميلة التي تجمعني بأهالي أطفالي. عملت ست سنوات في هذه الروضة، حتى قررت أنا وأختي أن نؤسس روضة خاصة بنا. بدأت روضتنا بعشرة أطفال فقط، وبدأ العدد يتضاعف عاماً بعد عام، التحقنا خلالها بالعديد من الدورات التدريبية في هذا المجال حتى نطور أنفسنا، ونقدم كل ما هو مفيد لأطفالنا. وفي أحد الأيام، سمعت عن دورة لمؤسسة عبد المحسن القطان منعقدة في جمعية الهلال الحمر، فتوجهت مباشرة إلى هناك. طلبت الالتحاق بالدورة على الرغم من أنني لم أتقدم بطلب التحاق بها، وبعد إصرار مني تم قبولي مقابل الالتزام بها، وتطبيق ما سأقوم بتعلمه مع أطفالي في الروضة.

بدأت مع «القطان» مرحلة جديدة في سيرتي المهنية، حيث تعلّمت الكثير خلالها، مما لم أجد مثله في دورات أو أماكن أخرى، أصبحت أقدم التعليم بشكل مختلف لأطفالي، وبدأت أجد أدواراً أخرى لي كمربية غير تلك التي اعتدت على أدائها، ما جعلني أحس بطعم الولادة، ليست ولادة جديدة فقط، بل استعادة الولادة الأولى ومكانها، استعادة الاسم وحب الجيران وهدايا العيد، لكنها الهدايا التي أصنعها لطلابي، وأحملها في بابا نويل الجديد - «بابا عباءة الخبير».

روضة الأمير النموذجية - كفر عقب

المربية أحمد خلال مشاركتها في لقاء مع الخبير تيم تايلور.